تأبينه سمير فرنجية غداة وفاته بأنه «كان مؤمنًا، ومؤمنًا كبيرًا!»[1] ومتى كان الإيمان غير ذلك؟!

أسئلة الحرب الأولى

وإذا كان سمير فرنجية في المقاطع السابقة قد عبّر عن إيمانٍ عميق بحلاوة العيش اللبناني، وبأسلوب العيش اللبناني ما قبل الحرب (Lebanese way of life)، فقد عبّر في الوقت نفسه عن احتقار عميق (dédain viscéral) لذلك العنف الذي أطاح بنعمة العيش المشترك. غير أن ما كان يهمه بالدرجة الأولى ليس الإدانة، وإنما الوقوف على الأسباب الكامنة وراء ذلك العنف... وهو ما كان مدار «رحلته إلى أقاصي العنف» بحثًا عن اسبابه العميقة في التاريخ والاجتماع والثقافة والسياسة، وقبل ذلك في النفس البشرية. وفي بداية بحثه طرح الاسئلة «السياسية» حول المسؤولية عن الحرب من مختلف وجهات النظر، مقدمًا رواية كلا الفريقين. وفيما يلي سنتبين شمولية نظرته وتوازنها، أي اتّصافها بدرجة عالية من الموضوعية والإنصاف:

«ما هو مصدر هذا العنف الذي نصب الطوائف وجهًا لوجه، قبل أن يتغلغل داخل كل منها؟ ترى من المسؤول عن تلك الحرب؟ هل هي إسرائيل التي سعت منذ عهد بعيد، وقبل أن تجتاح لبنان عام ١٩٨٢، إلى تجزئة هذا البلد وجعله كانتونات طائفية متنابذة؟ أهي

١. كلمة المطران يوسف بشارة بمناسبة قداس الأربعين عن راحة نفس سمير فرنجية بتاريخ ١٩ ايار ٢٠١٧، كنيسة مار مارون – الجميزة.

سورية التي لم تستسغ يومًا أن يكون لبنان سيدًا مستقلًا إلى جانبها، فشجعت المقاومة الفلسطينية على زرع قواعدها في لبنان، ثم اتخذت من هذا الوجود المسلّح ذريعةً لإدخال جيشها إلى هذا البلد الصغير عام ١٩٧٦ بدعوى «حماية المسيحيين من خطر التهديد الفلسطيني» تارةً، وطورًا بدعوى «حماية المسلمين من هجمات المسيحيين»؟! أيكون المسؤول عن اندلاع الحرب هو حزب الكتائب اللبنانية الذي هاجمت ميليشياه «بوسطة عين الرمانه» بركابها الفلسطينيين، فقتلت من قتلت في ١٣ نيسان ١٩٧٥، ليغدو هذا اليوم بمثابة التأريخ الرسمي لبداية الحرب؟ أخيرًا هل يمكن اعتبار الجيش اللبناني مسؤولًا لمحاولته عام ١٩٧٣ تصفية المقاومة الفلسطينية، أم أن هذه الأخيرة هي المسؤولة لكونها انشأت في لبنان «دولةً داخل الدولة» منذ العام ١٩٦٩؟... ولكن لماذا التوقف ههنا في عملية التأريخ للحرب ولا نذهب، مثلًا، إلى فتنة ١٩٥٨ أو حتى إلى أبعد من ذلك، إلى الإنتداب الفرنسي الذي منح الموارنة امتيازات على حساب الطوائف الأخرى، فزرع بذلك بذور النزاعات اللاحقة؟... وهل يمكن تجاهل المذابح التي جرت عامي ١٨٤٠ و١٨٦٠ بين الموارنة والدروز؟

تلك الأسئلة المعبرة عن وجهات نظر متباينة تبقي السؤال معلقًا: متى حدث ذلك بالفعل؟ فالتواريخ الافتراضية يدفع بعضُها بعضًا!... لذا رأينا المؤرخين، من كلا الجانبين، ينبشون في سجلات طوائفهم بحثًا عن إجابةٍ تنكي الخصم أكثر مما ترضي الحياة! لقد رجعوا القهقرى في التاريخ، فوقفوا واستوقفوا، وبكوا واستبكوا، عند العثمانيين والمماليك والصليبيين، وصولًا إلى الفينيقيين حيث توقفوا هناك منقطعي